الحلم الفرنسي

عندما أعيد قراءة كلمة "مصير" التي تسللت إلى أعلى الصفحة دون أن أفكر فعلا بذلك ، لا أدري إن كان عليّ أن أجهش بالبكاء أو أنفجر ضحكا، وأن أقفز بكل حماقة ناطحا الحائط برأسي، طالما أن هذه الكلمة تعانق في ذهني معاني العَظمة و المجد والخلود، ولعل الأفضل أن أقطب وجهي ودمعي يعقب ضحكي. فمن غير اللائق أن نطلق تسمية "مصير" على حياة بؤس وتشرد بلا مستقبل أُهدرَ معظمها في حانات قذرة أشبه بجحور الجرذان، وأوكار الجانحين، وأماكن الانحلال الأخلاقي، وأيضا في مهن وضيعة ما إن أنجح في الحصول على واحدة منها حتى أتخبط في الفراغ وفي الفراغ... بيد أني عندما أكتب وأنا في خضم القلق الذي يصاحب فعلا من ذاك القبيل وما ينطوي عليه من خطورة، قد أزيدها غموضا في حين أني كنت أتطلع إلى جعلها أكثر تجليا، متوهما أني أكيفها لأجلي ممجدا إياها، وهذا يعني تحديدا أني أنجزها بوصفها مصيرا، أجرجرها، وأمحوها في سيرورة الجمل وسياقها. وفي حقيقة الأمر، لم أرسم لنفسي منذ البداية وحتى النهاية سوى طموحا واحدا ألا وهو أني أحقق معجزة، معجزة أن أكون في آن الدمية المتحركة و محركها، وأن أتنكر حتى أبلغ درجة أجهل فيها من أنا. فالأمر أكثر من مجرد حياة أرويها ولو شتاتا، هو أن تحيك كما العنكبوت بسطور باردة و منفصلة نعشك أنت، ثم ترحل لتحرقه في مرقد الأموات بشعاعه الصاخب.